

جومو كينيا

1978 - 1894

خرج الزعيم الكيني جومو كينيااتا إلى الحرية في عام 1963، بعد سبع سنوات من السجن، ليتولى على الفور رئاسة أول حكومة في دولة كينيا المستقلة داخل الكومونولث. وفي عام 1964 انتخب أول رئيس للجمهورية. وكان اختياره لهذين المنصبين الرفيعين تقديراً للدور الذي لعبه في قيادة الحركة الوطنية على امتداد العقود السابقة على ذلك التاريخ. وصار من موقعه في رئاسة دولة كينيا الحرة أحد زعماء أفريقيا الكبار في ذلك التاريخ الذي شهد ولادة العديد من الدول الأفريقية المستقلة بعد تحررها من الإستعمار البريطاني والفرنسي والبرتغالي والبلجيكي.

وتعتبر كينيا واحدة من أكبر دول أفريقيا الشرقية ومن أكثرها عراقاً في التاريخ. تبلغ مساحتها 583 ألف كيلومتراً مربعاً. ويزيد عدد سكانها على ثلاثين مليون نسمة. وهي تقع على تخوم جبل كلمنجارو وبحيرة فكتوريا من الجهة الجنوبية. ويقول بعض علماء الآثار إن الإنسان الأول ظهر في المنطقة ذاتها التي تحمل اليوم اسم كينيا. ويعيدون ذلك إلى الموقع والمناخ اللذين تتميز بهما كينيا.

ولد جومو كينيااتا في عام 1893 في بلدة إيشاويري. وترجع أصوله إلى قبيلة كيكويو. تلقى تعليمه في المراحل الأولى في المدارس التبشيرية. واسمه الأصلي هو هنري توكو. اعتنق المسيحية من دون أن يتخلى عن تقاليد قبيلته الأفريقية. وقد أهلته دراسته في المدارس التبشيرية للإطلاع على الكتب التي أغنت ثقافته ومعارفه منذ وقت مبكر. بعد تخرجه من المدرسة عمل كاتباً في مصلحة مياه نيروبي. انضم في عام 1921 إلى رابطة قبيلة الكيكويو. وهي الرابطة التي كانت من أوائل من طالبوا السلطات البريطانية التي كانت قد وضعت كينيا تحت سيطرتها منذ مطلع القرن الماضي، بالكف عن استيلائها على الأراضي الزراعية للكينيين. وحملت الرابطة اسم جمعية شرق أفريقيا. كانت الأراضي الزراعية مصدر حياة السكان. ويقول كينيااتا في كتابه "في مواجهة جيل كينيا" تعليقاً على تمسك الأفارقة بأرضهم الزراعية: "إذا كانت الأم تحمل جنينها في بطنها تسعة أشهر ثم تقوم

بإرضاعه على امتداد عامين، فإن الأرض تطعم الإنسان طوال حياته. وفيها يدفن. وفي أعماقها تقيم أجساد وأرواح الآباء والأجداد الأقدمين". ورداً على نشاط الجمعية قامت السلطات البريطانية بإقفالها بعد عام واحد من قيامها. لكنها عادت فسمحت للأفارقة بتشكيل جمعية الكيكيو المركزية في عام 1928. وبدأت الجمعية نضالها في الداخل مرفقة ذلك العمل على كسب تأييد لها بين نواب حزب العمال البريطاني. ووجه كينياتا باسم الجمعية مذكرة إلى الحكومة البريطانية يطالبها بإعادة الأراضي المصادرة إلى أصحابها وزيادة المساحة من الأراضي التي تعطى للجمعية. وكان كينياتا قد أصدر في عام 1928 جريدة تنطق باسم قبيلته وباسم جمعيتها، وانتخبه شيوخ القبيلة ممثلاً لهم وللقبيلة في التفاوض مع السلطات البريطانية. سافر في عام 1929 إلى بريطانيا ليعرض أمام السلطات البريطانية قضية شعبه وبلده. وبقي فيها عاماً كاملاً. وهناك التقى بالعديد من الأفارقة الذين كانوا يتابعون دراستهم في الجامعات البريطانية. كما التقى بالعديد من القادة النقابيين البريطانيين ولبي دعوتهم لإلقاء محاضرات عرض فيها للأوضاع المأساوية التي كان يعيش فيها شعبه في ظل الإستعمار البريطاني. لدى عودته إلى كينيا في عام 1930 أسس مدرسة كينية إحياءاً للتقاليد الأفريقية وترسيخاً لها في مواجهة ما كانت تفعله الإرساليات التبشيرية. وفي عام 1931 عاد إلى بريطانيا لمتابعة دراسته الجامعية. وبقي فيها عدة سنوات أتم فيها دراسته في مادتي الإقتصاد والعلوم السياسية. وساهم خلال وجوده في الجامعة مع عدد من الأفارقة في تأسيس جمعية أفريقيا الشرقية وانتخب رئيساً لها. وفي عام 1945 عقدت الجمعية مؤتمراً ناقشت فيه مجمل الأوضاع التي تواجه بلدان أفريقيا بعامة وأفريقيا الشرقية بخاصة. وكان له دور متميز في ذلك المؤتمر.

عاد كينياتا في عام 1946 من لندن إلى بلاده ليتابع نشاطه السياسي من أجل الإستقلال ومن أجل بث الوعي في أبناء شعبه ونشر التعليم بالوسائل المتاحة لهذا الغرض. وانتخب في عام 1947 رئيساً لاتحاد كينيا الأفريقي الذي تبني برنامجاً للإصلاح السياسي

والإقتصادي، ومطلباً أساسياً باسترجاع الأراضي المنزوعة من قبل السلطات الإستعمارية إلى أصحابها الأفارقة. ترافق ذلك مع انتهاء الحرب العالمية الثانية بانتصار الحلفاء على النازية والفاشية باسم الديمقراطية. الأمر الذي شجع الحركات الوطنية في أفريقيا وفي مجمل البلدان التي كانت ما تزال تحت السيطرة الإستعمارية إلى استنفار طاقاتها للدخول في مرحلة النضال من أجل الإستقلال. كان البرنامج الإصلاحي الذي طرحه حزب كينياتا شاملاً. وكان مطلب الإستقلال في مقدمة ذلك البرنامج. ويتضمن البرنامج مجموعة من المطالب الأساسية، كان في طليعتها إلى جانب الإستقلال موضوع الأرض. وجوهر هذا المطلب يقوم على حق الأفارقة في امتلاك أراضيهم والعمل فيها بحرية، واستعادة الأراضي المنزوعة منهم من قبل المستوطنين البريطانيين. المطلب الثاني هو البدء بفتح مدارس لتعليم الأفارقة كحق طبيعي لهم ولأولادهم، وأن يشمل التعليم كل ما يتصل بتأهيل السكان لامتلاك المعارف في جميع ميادينها، بما في ذلك في الأمور الأولية المتصلة بتطوير الزراعة، المصدر الأساسي لحياتهم. المطلب الثالث يتصل بقضايا الصحة والرعاية الإجتماعية. المطلب الرابع يتمحور حول الحريات المدنية للمواطنين الأفارقة، الحريات التي تتيح لهم ممارسة حقهم في العمل في الميادين المختلفة وفي التنقل داخل وطنهم والسفر إلى الخارج وسوى ذلك من أمور. المطلب الخامس حق الكينيين في تشكيل حكومة لهم في إطار حكم ذاتي يمهد للإستقلال. وفيما يلي النص الحرفي لذلك البرنامج كما قدمه كينياتا للبريطانيين: "المطلب الأول الأرض: هناك مساحات واسعة من الأراضي ينبغي أن يتقرر بصفة قاطعة ومطلقة أن للأفريقيين الأولوية في الإنتفاع بها، وألا يسمح في المستقبل بهجرة المستعمرين البيض إلى البلاد لكي يكون الوطنيون أحراراً في الإقامة والعمل في أرضهم، مطمئنين إلى أنها لن تنزع منهم، وألا يجرموا من أكثر المناطق صلاحاً للإستثمار لمجرد كونها ذات مناخ يلائم سكنى العناصر الأوروبية. ولا بد أن توفر لأبناء البلاد المساحات الكافية من الأرض مما يتيح لهم مستوى لائقاً من العيش. المطلب الثاني التعليم: يطالب الأفريقيون أن تتاح لهم فرصة التعليم الذي يمكنهم من حسن استغلال

الأرض. وهم يدركون أن العالم المحيط بهم قد تغير خلال نصف القرن الأخير. لذلك لن يستطيعوا-حتى لو أرادوا ذلك- العودة إلى الأساليب القديمة التي درجوا عليها. وهذا يتطلب تدريبهم تدريباً كافياً على العمل في الزراعة وفي تربية الحيوان، وأن يحصلوا على قدر من التعليم العام يمكنهم من إدراك معنى الحضارة والإنجازات المتصلة بها. إن من الخطأ أن يمنع الأفريقي بسبب الجهل المفروض عليه قسراً من أداء أي عمل تؤهله له مواهبه الطبيعية. المطلب الثالث الصحة والرعاية الاجتماعية: لقد أحدثت الحضارة الأوروبية تغييرات كثيرة على حياة الأفريقي. إذ هي غيرت الكثير من عاداتهم ومن أعمالهم. وحدث من حرمتهم في التنقل. وحطمت الكثير من عناصر الحياة الأسرية التقليدية. وبعثت بالكثيرين منهم إلى المدن. ودفعت بغيرهم إلى العمل في المناجم والمزارع. وفي صحبة هذا كله جاءت الحضارة الأوروبية بأمراض جديدة وأخطار جديدة على الصحة والإستقرار الإقتصادي. ويخالف الأوروبيين لا تكفل الدولة للأفريقيين شيئاً من الخدمات الصحية أو الضمان الإجتماعي. لذلك فإن من حقهم أن يطالبوا بأن تعود إليهم نسبة من الضرائب التي يؤدونها. المطلب الرابع الحريات المدنية: لن تؤدي هذه الإصلاحات الغرض منها إذا ما ظل الأوروبيون ينظرون إلى الأفريقيين على أهم أناس عاجزين عن التفكير والعمل لأنفسهم وبأنفسهم. لهذا يجب أن يتساوى أهل كينيا في حرياتهم وأوضاعهم أمام القانون. إنهم يطالبون بالمساواة مع الأوروبيين من حيث الحق في التعبير عن الرأي والحق في الإنتقال من مكان إلى أي مكان آخر، وفي ممارسة أي عمل أو حرفة. المطلب الخامس الحكم الذاتي: يطالب الأفريقيون بالإشتراك في حكم بلادهم. فيجب أن يعطى لهم الحق في انتخاب من يمثلونهم في المجالس المختلفة، وأن يتساوى كافة سكان البلاد من حيث المؤهلات للتصويت. فالى أن يتحقق هذا الأمر سيظل الأفريقيون شعباً خاضعاً. وإذا ما ظلوا محرومين من حقوقهم تلك لا ينتظر منهم أن يحترموا القوانين التي لا يشتركون في وضعها".

عندما بلغ نشاط اتحاد كينيا الأفريقي (KANU) ذروته ردت السلطات الإستعمارية بإعلان حالة الطوارئ في عام 1952 وألقت القبض على كينيئاتا وعلى عدد من زعماء الإتحاد. ووجهت إليهم تهمة المشاركة في حركة "الماوماو" وفي عمليات تصفية جسدية لعدد من المستوطنين البريطانيين. وحكم على كينيئاتا بالسجن مدة سبع سنوات خرج بعدها ليبقى في الإقامة الجبرية سنوات إضافية. لكن نضال الكينيين استمر على امتداد تلك الفترة واتخذ أشكالاً مختلفة في السياسة وفي الكفاح المسلح الذي كانت تقوم به حركة الماو ماو. الأمر الذي اضطر السلطات البريطانية إلى إنهاء حالة الطوارئ في عام 1960 والدعوة إلى عقد مائدة مستديرة في لندن بمشاركة ممثلين للحركة الوطنية الكينية. وتقرر في ذلك المؤتمر إجراء انتخابات لأول مجلس تشريعي كيني في العام ذاته، فاز فيه اتحاد كينيا الأفريقي بأغلبية المقاعد. إلا أن الحزب رفض تشكيل أول حكومة وطنية إلا بعد الإفراج عن كينيئاتا. فلم تستجب السلطات البريطانية لطلب الحزب. وتشكلت حكومة مؤقتة. وفي عام 1961 تم الإفراج عن كينيئاتا. وفي عام 1962 تم وضع دستور للبلاد يكرس استقلال كينيا مع البقاء في الكومنولث. وفي عام 1963 جرت انتخابات جديدة على قاعدة الدستور ففاز حزب كينيئاتا من جديد بأغلبية المقاعد. وشكل كينيئاتا أول حكومة وطنية في ظل الإستقلال. وفي العام التالي انتخب رئيساً للجمهورية. وظل يمارس سلطاته في موقع الرئاسة حتى وفاته في عام 1978.

لم يكن كينيئاتا أول من أطلق العنان للحركة الوطنية في كينيا. فقد سبقه إلى ذلك زعماء آخرون كبار ابتداءً من مطلع القرن. وفي أعقاب الحرب العالمية الأولى تشكلت في إطار النضالات الأولى دفاعاً عن حقوق السكان الأفارقة الأصليين جمعية أفريقيا الشرقية الوطنية. وكان هاري توكو زعيمها. وقد اتخذت لها أهدافاً واضحة تتصل بالدفاع عن الحقوق السياسية والإقتصادية للمواطنين. تأسست الجمعية في كينيا. وكانت بذلك من أوائل الجمعيات التي تأسست في أفريقيا الشرقية حاملة تلك الأهداف الوطنية. وتابعت

الجمعية برئاسة زعيمها كوتو نضالها. وعقدت اجتماعات حضرها ألوف السكان تمحورت حول الحقوق السياسية وحول المساواة وحول الحريات العامة. واستخدم الزعيم قيم الدين لتأكيد الحقوق العامة للمواطنين ولاستهواض همهم في الدفاع عنها. وإذ شعرت السلطات بازدياد نفوذ الجمعية وزعيمها سارعت إلى القبض عليه وزجه في السجن وحل الجمعية، بعد أن واجهت المتظاهرين المطالبين بإطلاق سراح زعيمهم بإطلاق النار عليهم وقتل عدد منهم.

غير أن أسئلة كثيرة طرحت حول الحركة التي حملت اسم ماو ماو. كيف نشأت، من أنشأها، ومن هو زعيمها. أسئلة حيرت المستعمرين. فأطلقت شائعات حولها بهدف تشويه سمعتها من قبيل الإدعاء بأن وراء تأسيسها قوى خارجية. وكتبت الصحف البريطانية في وصف أعمالها ما يثير حذر الأفريقيين منها. وجاء في بعض الأخبار عنها في الصحافة البريطانية أنها تنظيم شيوعي، وأنها بصفتها الشيوعية تلك لا تتورع عن ارتكاب أعمال القتل من دون رادع! واتهمت السلطات الإستعمارية جومو كينيياتا وحزبه بأنهما وراءها. وكان ذلك الإتهام أحد الأسباب التي قادت إلى الإعتقال. وكانت الحركة قد بدأت نشاطها في عام 1952 في شكل سري تحت اسم ماو ماو. وهو الإسم الذي حير الباحثين في تحديد معناه. ويقول البعض إن هذا الإسم لا يمت بصلة إلى لغة أهل البلاد. ويذهب بعض الباحثين في علم اللغات إلى القول بأن أصل الكلمة هو "أوما أوما". وهي ألفاظ مشتقة من اللغة السواحيلية ومعناها "قم قم"، أي اخرج إلى العمل. وتشير المعلومات أن جمعية الماو ماو كانت تضم الكثيرين من زعماء القبائل ورجال الدين، الأمر الذي أعطى للحركة أهميتها ووسع لها نفوذها في وسط الأفريقيين كحركة تحرير وطنية. وعندما تم الإفراج عن جومو كينيياتا ودخل الحياة السياسية كزعيم لكينيا ارتبط اسمه بحركة الماو ماو، التي توقفت عن النشاط بعد حصول كينيا على استقلالها داخل الكومونولث. واتخذت شعبياً صفة الحركة الوطنية لشعب كينيا.

في الفترة التي استقلت كينيا وصار كينيا رئيساً للجمهورية بصفته زعيماً تاريخياً للحركة الوطنية على امتداد ثلاثة عقود، بدأت تشهد البلاد صراعات بين المكونات الأساسية للشعب وقواعدها القبلية. وكان حزب كينيا الحزب الأكبر. لكن أحزاباً أخرى كانت قد تشكلت في فترات سابقة وبعضها جاء بانشقاقات من حزب كينيا ذاته. وكان بطلاً ذلك الإنشقاق توم بويبا وجينيغا اودينغا.

في تلك الفترة بالذات (1963) ذهبت في جولة إلى أفريقيا في إطار وفد من حركة السلم العالمية مشكل من عدد من الشخصيات العامة من الإتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا والهند. وكنت سكرتير الوفد من موقعي في قيادة مجلس السلم العالمي مسؤولاً عن العلاقة مع الحركات الوطنية في أفريقيا. جال الوفد في عدد من بلدان القارة السوداء. وكانت كينيا واحدة من البلدان التي زرناها. استقبلنا جومو كينيا وإلى جانبه كل من توم بويبا وأودينغا. وكان أودينغا قد أصبح عضواً في مجلس السلم العالمي. وكان يحضر الاجتماعات العامة للمجلس. وهو الذي نظم لنا في ذلك الحين زيارتنا إلى كينيا وأمن لنا اللقاء مع كينيا بحضوره. وقد اكتشفت في تلك الزيارة بعض ما كان خافياً عليّ من أمور تتصل بطبيعة الوضع في أفريقيا القادمة حديثاً إلى استقلال بلدانها عن السلطات الإستعمارية القديمة. اكتشفت الدور الكبير والحاسم للقبائل في حياة تلك البلاد وشعوبها، والصراعات التي كانت تشكل الأساس للصعوبات التي واجهتها وما تزال تواجهها القارة حتى هذه اللحظة وهي تناضل من أجل الدخول في الحضارة العالمية الجديدة.

تفجر الصراع بين الأخوة في كينيا في السنوات الأولى التي أعقبت حصولها على الإستقلال. لكن كينيا انتصر على خصومه وصفاهم الواحد تلو الآخر. اغتيل توم بويبا. وأبعد إودينغا عن السلطة وخسر المواقع التي كانت له في البرلمان. وجرى تهميشه. واستمر كينيا زعيماً أوحداً للبلاد حتى وفاته في عام 1978.